

# العلوم

## بحث في تاريخ الإنسان

بقلم نعيم علي راغب

دبلوم عال في الجغرافيا

قديم جداً من العصور ، يقع قبل التواريخ المدونة في الكتب  
بمراحل كبيرة جداً . ونجد لزاماً علينا في هذه الحالة أن نقص  
عليك أطيب القصص عن عصر لم يوجد به رأى يفكر أو يد  
تسطر لنا ثمرات هذا التفكير .

ولقد خيل للعلماء أجمع استحالة تتبعهم وتفهمهم لما حدث  
في تلك الأحقاب السحيقة ، ثم تسطير تلك الحوادث التي حدثت  
منذ آلاف السنين ، لو لم تأت المصادفات ويساعد الحظ الحسن على  
كشف أستار الماضي الكثيفة : فانه في حوالى سنة ١٨٢٥ قامت  
بمئة أترية دغركية بالبحث عما قد يكون مندثراً في أراضي بلادها  
من أسلحة أو حلى أو آنية قديمة ، ثم وضعت كل ما وجد في  
متحف كوبنهاجن .

وفي سنة ١٨٣٠ حينما ازدادت كمية المحفوظ به فكر مدير  
قسم الآثار س . ج . تومسون C. J. Thomsen في تقسيم المحفوظات  
الى أقسام ترتب حسب نوع المدن المصنوعة منه . إلا أنه في  
ذلك الوقت أتته فكرة طارئة ، كانت ذات أثرين في سير  
التاريخ الانساني ، وذلك أنه ساءل نفسه عما إذا كان من  
المحتمل أن تكون تلك المحفوظات عنده في المتحف كل منها  
يمثل عصرًا خاصاً من عصور الانسانية ، وجاءت الحوادث بعد  
ذلك لتحقق صدق حدسه الذي تخننه ، فقد وجدت أشياء  
أخرى بطريق المصادفة لغريق من عمال البناء عند حفرهم آبار  
منازل كلها من مرافق الانسان الذى عاش في العصور السالفة ،  
وكان أقربها لسطح الأرض الحديدية والبرونزية فالحجرية .

فأخذ علماء الدنمرك حينذاك يعرفون أن الأرض نفسها سجل  
صامت ثابت يحفظ تاريخاً صحيحاً لأعمال وحياة الانسان في  
العصور السالفة ، ووجدوا ذلك صحيحاً في كل جهة من جهات  
بلادهم : في المقابر القديمة ، في الآبار وفي شواطئ الأنهار مما  
على عليهم التاريخ الصحيح للانسان القديم .

إذا أردنا الكتابة أو البحث في تطور الانسان على مر  
الدهور والأيام ، فانما نمضي في الحقيقة تاريخ الانسان ، تاريخ  
حياته وجهاده وكيف . . . ومتى . . . ومن أين أتى بشكله الطبيعى  
المألوف الذى نراه به اليوم . وكيف تكونت عنده القوى العقلية  
والقدرة على التكلم والتفاهم .

من الواضح الجلى أننا إذا حاولنا الكتابة في هذه الحداثات  
التاريخية القديمة ، يجب علينا أن نوجه أبحاثنا وننظر بعيداً الى عصر

... لأن الفضيلة الكاملة التى وضعها في عينك لم تصنع إلا من أجلك»  
وقد ولدت عنده هذه الحكمة حكمة دينية أبدأها في بعض  
مقاطع صغيرة . حيث أبدى أن الوحي الألهي ليس بواحد ولا  
بثابت ممتنع عن التغير . ولكنه يتنوع ويتقلب ويتقدم كالانسانية  
نفسها . وقد أدرك ليسغ الذروة ألمالية في روايته ( الحكيم نانان )  
اذ أعلن أن الحكيم الحقيق هو الذى يتروض على الفضيلة  
ويخضع لأحكام العناية الألهية الخالدة .

لقد فهم رجال الأدب بعض جوانب هذا الرجل العظيم ، ولن  
تظهر عظمتة واضحة إلا بعد أن يرجعوا الى البيذور الفنية التى  
تترها في طريقه ، وهل كان ( جوتة ) و ( هير دار ) إلا أول فن  
من هذه الشجرة ، أورتق وأزهر وأثمر ، ثم أتى أكله فكان  
نعم الأكل (١) .

فيليل لفتراوى

بيروت

(١) آثرنا أن نتقل صفحة معربة من كتاب ( اللاوكون ) وفيها تحليل  
دقيق لبعض الصور الفنية التى كان لها تأثيرها البالغ في تخوير الفن وإبداع  
صوره الجديدة في المهد القديم ، وفيها يطلع القارىء على سمو نظر هذا الناقد .

وجدوها . وزاد يقينهم في هذه النظرية تكرار وتنازل ترتيب الطبقات في كل الكهوف التي بحثوها . وقد وجد علماء الانجليزية والألمان واليطاليان والاسبان بدورهم نفس الترتيب الذي وجد في كهوف فرنسا

وهكذا نرى أن الكهوف قد أمدتنا بالمعلومات والحقائق الخاطئة بتاريخ الانسان القديم ، وأمكننا تطوير تاريخ دقيق لا عن المدة التي كشفت عنها حفائر الدنكر فقط ، بل عن مدة تتناهي في القدم عن تاريخ قدماء المصريين أو تاريخ بابل القديم . وإنك لتدهش حقاً إذ تعرف أن تلك الحفريات قد كشفت لنا عن ظاهرة ليست غريبة عن عصرنا ، وهي مسألة الزى ، أو « المودة » fashion فقد ثبت منها أن مجرد وضع زى خاص للبس أو زينة في بلد في تلك العصور كان كافياً لانتشاره في العالم القديم أجمع ، ولذلك ترى أن أجدادك وأجدادنا الأقدمين كانوا مثلنا عبيداً للزى المتفشى في العصر . ولو أن زيمهم كان أثبت قطماً وأطول بقاء من زينا الذي يتغير سريعاً بتغير الفصول والمناخات

لر الآن إلى أي حد تعمق البحث في تاريخ الكهوف القديم . من الشكل رقم « ١ » يرى القارى قطعاً رأسياً في كهف مثل تلك فيه الطبقات والعصور التي وصل العلماء إلى الكشف عنها . ومنه يمكنه أن يلاحظ أن العصور الثلاثة المروفة (الحديدي والبرونزي والحجري) تقع في أحدث جهات الكهف كشافاً ، ومن بعدها عصر سماه العلماء Azilian (لأن الحفريات التي دلت على وجوده عملت بالقرب من قرية Mas d, Azile في فرنسا) يجيء بعده عصر سموه Magdalenian (نسبة إلى كهف La Madeleine في مقاطعة اللردون) يتبعه عصر سمي Solutrean (نسبة إلى جهة Solutré بالقرب من ماسون بفرنسا) فعصر أطلق عليه اسم Aurignacian (نسبة إلى قرية Aurignac في أعلى الجارون) وآخر هذه العصور عصر أطلق عليه اسم Mousterian نسبة إلى الكهف Le Maustier في مقاطعة داردوني Dordogne

وليس هناك أدنى شك في صحة ترتيب العصور السابقة الذكر ، لأن الأبحاث التي قام بها العلماء بعد ذلك لم تكشف لنا إلا عن نتائج صورة طبق الأصل لما قد بيناه في هذا المقال . إلا أننا نقف لحظة

من كل تلك الأشياء وصل تومسن Thomseu إلى نتيجة نهائية ، هي أن تاريخ الانسان القديم مقسم إلى ثلاثة عصور : الحجري والبرنزي والحديدي ، وبذا كانت الدنكر أحدث الجواهر في التكوين جيولوجياً ، هي أول مكان بحث التاريخ السحيق للانسان على هذا النمط العلمى الجديد .

حول العلماء الفرنسيون بعد ذلك طريق كتابتهم لتاريخ الانسان وجاروا الدنكريين في طريقتهم ، ووجدوا مادة بمخيم الجديد في كهوف مقاطعة Dordogne وبدأ ادوارد لاريت F. Lareit ومعاونوه البحث فيها حوالي عام ١٨٦٠ فوجد أن معظمها كان مستعملاً قبل ذلك كما كن أو مقابر في كل عصور التاريخ القديم ، وكان من عدم اعتناء السكان الأقدمين بالنظافة وترك كهوفهم مملوءة بالبقايا والأدوات حظ حسن للتاريخ ، وكان من تساقط المياه اللحية من سقوف الكهوف خير معوان وخير عامل على حفظ تلك البقايا الانسانية بعيدة عن الضياع أو التلف ، وارتفع قاع الكهوف بالعوامل الطبيعية والجيولوجية ، حفظت الأرض بين ثناياها على ارتفاع ينيف على الثلاثين قدماً آثاراً عظيمة الشأن للحياة الانسانية من مدة طويلة من الزمن .

ولم يطل الزمن بعد ذلك حتى عرف الفرنسيون أن كهوف بلادهم تحفظ تاريخ الانسان لمدة أقدم بكثير مما تحفظه مقابر اسكنديناوه أو قدماء المصريين . ولم تكن العصور الانسانية الثلاثة المروفة لهم سوى عصور حديثة جداً إذا ما قيست بما تم عليه آثار كهوف فرنسا ، ومن بينها الهياكل العظيمة المتحجرة للحيوانات التي كانت تعيش في تلك العصور ، كفضال الرنة ، والضبع ودب الكهوف . ولقد قسم اللورد ايشبرى Lord Avebury العصر الحجري إلى قسمين : أسمى أحدهما العصر الحجري الحديث Neoliths القريب من العصر البرنزي وهو ما وجدت آثاره في الدنكر ، وأسماى الآخر العصر الحجري القديم Palaeoliths .

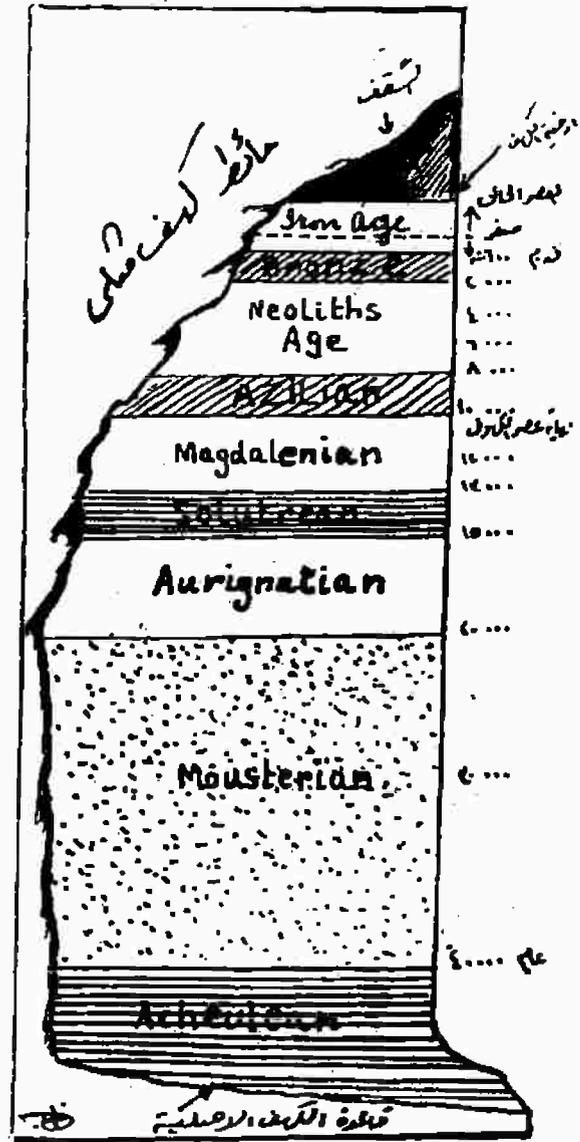
وكما ازداد الفرنسيون تعمقاً في حفرياتهم ازدادوا يقيناً بصحة ترتيب تلك العصور المختلفة وتغيرات عديدة قد حدثت للمناخ وقتذاك ، وعرفوا أنه لم يكن هناك عصر حجري قديم واحد كما ظن السير ايشبرى بل جملة عصور متتابعة متناهية في القدم يمتاز كل عصر منها بميزات مختلفة ، أمكن انتزاعها من الآثار التي

من مدة ١٠٠٠٠ سنة أو ٨٠٠٠ قبل الميلاد لا يمكننا أن نقرر لأقدم عصر من عصور الكهوف تقديرا غير مبالغ فيه وهو ٤٢٠٠٠ سنة ولكي نعلم أيها القارىء أن أقدم عصر من عصور الكهوف هو أهم عصر في هذه العصور جميعا، يكفي أن نذكر أنه بين طبقات الأرض في هذا العصر قد وجدت بقايا عظام متحجرة لمنصر من عناصر المخلوقات يختلف اختلافا عظيما جدا يبعده عن الصورة التي كان عليها أقدم الأجناس البشرية المعروفة . هذا النوع أو الجنس يعرف باسم إنسان النيدراانتال Neanderthal-Man ويمتاز هذا النوع بفرطحة الجمجمة وبروز عظام محاجر العين . كان رجاله ونسائه ذوى قامات محدودة يعتمدون كما تعتمد القرود على أيديهم في المشي .

وقد بدأ هذا النوع من أنواع الإنسان القديم يظهر واضحا جليا بآثاره ومخلفاته في أواخر أقدم عصر من العصور التي ذكرناها Mousterial مستريان

ومن الآثار والمخلفات التي وجدت في الكهوف القديمة في جميع أنحاء العالم أمكن تتبع حياة الإنسان لمدة تزيد عن ٤٠٠٠٠ سنة في وقت كانت فيه أوروبا مسكونة بعنصر من العناصر الإنسانية يختلف اختلافا بينا عن المنصر الذي نحن منه . عنصر أطلقنا عليه كما سلف Homo Neanderthalensis . وثبت أن أوروبا كان يسكنها في العصر القديم الذي أطلقنا عليه اسم Mousterial عنصر من الإنسان النيدراانتال .

وبرغم أن الإنسان الذي وجدت آثاره كان نظريا أقرب في حياته إلى الحيوانية فإنه كان رجلا أو إنسانا بكل ما في جسمه من صفات وما في عقله من خواص وتفكير . وما دما نرجميه إلى الوصول لفجر الإنسانية ومعرفة تاريخ النشأة البشرية فإنه يجب علينا أن نتخذ لنا طريقا آخر يساعدنا على تفهم ما نريد ومعرفة ما ترى إليه . هذا الطريق هو البحث في الأنهار والمجاري المائية . فإن البحث والتنقيب اللذين قام بهما فيها ، دلا على أن هناك آثارا ومخلفات قديمة تحفظها الأنهار والمجاري في قاعها وشواطئها ومدرجاتها ، وكأنها تقدر بمجهود الإنسان لحفظ كيانه ، فعملت على حفظ آثاره وتخيل ذلك ترويه منها بمظلمته وقوته . ولنا في مدرجات نهر التيمس أكبر دليل على



شكل (١) رسم تخطيطي لكهف مثلي يظهر عليه تركيب وتتابع الطبقات الجيولوجية

ونسائل أنفسنا ما هي فترة كل عصر من تلك العصور ؟ ومتى بدأ كل عصر منها ؟ . . . ومتى انتهى كل منها ؟ . إن السنين المذكورة في شكلنا رقم « ١ » ما هي إلا عدد تقديري تقريبي غير ثابت تمام الثبوت ، وربما كشف لنا العلماء حديثا ما يدفعنا إلى تغيير في هاته الأرقام . لكننا مع ذلك نعلم أن فترة الكهوف قد انتهت بانتهاء عصر الجليد . ولقد استطاع علماء السويد وعلى الأخص البارون دي جير Baron de Geer أن يضعوا لنا تقديرا معقولا انزعومين آثار عصر الجليد وعرفناهم أن عصر الجليد قد بدأ في السويد من مدة ١٢٠٠٠ سنة مضت تقريبا . ونحن إذا قدرنا أن حياة الإنسان في الكهوف قد انتهت